

## اللغة والفكر

### 1) مقدمة

لقد تبين من دراسة الحقيقة أن الكلام هو الوسيلة المثلى لكشف المعرفة، وأنه يستخدم لإقامة الحقيقة، أن هذه الملاحظة تنضاف إلى ملاحظه اللغويون بخصوص الطفل الذي يتعلم الكلام : ان الطفل من فرط سماعه لاستخدام نفس الأصوات في نفس الأوضاع الاجتماعية يربط في نفسه بين معرفة الاصوات والأوضاع الاجتماعية. وفي اليوم الذي يستعمل فيه الطفل كلمة (طاولة) مثلا بكل دقة، حينئذ سنكون على يقين بأنه عرف الأثاث والكلمة، وكذلك اندماج هاتين المعرفةين. ان سيرورة التعلم هالة تؤدي إلى الحقيقة : أي لكي يتمكن الطفل من اكتساب كلمة طاولة يلزم أن تبرز معرفته نقطة التقاء مع معرفة الأكبر منه سنا، وبهذه المعرفة المشتركة فقط يمكن ان ترتبط الكلمة.

ان بطف الطفل في تعلم بعض الكلمات يأتي بالضبط من الصعوبة التي يشعر بها في إيجاد علاقة بين معارفه ومعارف من يحيطون به، وعلى سبيل المثال فكلمتا (البارحة) وغدا لاتتعلقان بمعنى حسي : اي على الطفل ان يقوم برهان معقد شيئا ما لكي يجد العلاقة الزمنية لتجاربه. وكذلك الأمر بالنسبة للضمائر المنفصلة « أنا وأنت »؛ فان الطفل يكتسب هاتين الكلمتين في فترة متأخرة جدا لانهما لا تشيران الى أشخاص، ولكن تشيران الى الدور الذي يلعبه الشخصان في عملية التواصل : ان الشخص المشار إليه ب « أنا » عندما ينطق بها انسان ما يشار إليه ب « أنت » على لسان محاوره، والعكس صحيح ؛ فما دام الطفل لا يميز العلاقة المتغيرة بين المستمع والمتكلم فإنه غير قادر على استخدام ضميري المتكلم والمحاطب بدقة.

ان الأمثلة أعلاه تتعلق بمعرفة الوقائع الموضوعية، ولكن اللغة يمكنها ان تعبر عن معرفة الوقائع الذاتية. عندما يقول محب « أحبك » فانه يعبر عن معرفته بحبه، وبإيجاز يقال إن اللغة تعبر عن العواطف، ولكن نريد القول بأنها تعبر عن المعرفة بالعواطف. فجملة أمرية مثل « تعال » تصف ارادتنا، وجملة استفهامية مثل « أين هو أخوك ؟ » تصف رغبتنا في

□ أشرف على الترجمة وراجعها الأستاذ محمد سيلا في نطاق بحث جامعي بكلية الآداب بغاس، أخره حميش محمد توفيق.

الحصول على أخبار، ولكي نلجأ الى هذه الجملة ينبغي ان نعرف ارادتنا ورغبتنا. حينما نلجأ إلى نعمة ساحرة لنقول « هذا نظيف! » فاننا نستخدم هذه النعمة لكي نعرف إحساسنا، اننا نعرف احساسنا. عندما نحكي حلما فاننا نعر عن معرفتنا بهذا الحلم، وعندما يحكي كاتب رومانسي حياة خيالية، فانه حينئذ يصف لنا المعرفة التي لديه عن هذا العالم الذي خلقه في وجدانه. ان اللغة تعبر في جميع هذه الحالات عن المعرفة.

وهذا لا يدعونا الى القول بأن اللغة لا يمكنها أن تكشف الا المعرفة. عندما يفحص دارس الخطوط graphologue كتابة ما، فإنه يقيم علاقة بين شكل الحروف وشخصية الفرد الذي رسمها. ان دلالة الكتابة هاته شيء آخر غير الدلالة المحصل عليها من قراءتنا لكتابة ما. ان الدلالة الخطية لا تهم اللغوي لانها لا تستخدم لتحقيق التو اصل : إنها توجد بدون علم الفرد الذي يتواصل. وكذلك توجد في نطق الفرد كمية من العناصر غير اللغوية التي تبرز الجنس، والعمر، والاصل الاجتماعي، والحالة الوجدانية... الخ ؛ لا يستعملها الفرد لتحقيق التواصل ؛ وكذلك فان دلالتها لا تتعلق باللسنيات. ان هذه الدراسة ستحصر نفسها في حدود الوقائع اللسانية الخالصة، أي في التواصل الاجتماعي الذي يؤدي الى تناسق المعارف، أي في كلمة واحدة، الحقيقة.

سيكون من الأهمية بمكان مع ذلك أن نأخذ الفكر بعين الاعتبار ؛ لان دور المعرفة لا يفهم بدون افتراض قدرة، أي ملكة تستخدم وتنظم المعارف وتربطها بالكلمات. لنفترض أنه من الصعب جداً معرفة مِم تتكون هذه المَلَكَة ولا كيف تعمل، فان كلمة فكر ستؤخذ هنا في معناها الواسع ؛ أنها ستشير الى كل فعالية نفسية، سواء كانت شعورية أم لا، وسواء كانت عقلية أم لا.

وسيكون من الضروري كذلك أن نتحدث عن الأفكار ؛ لان معارفنا الحقيقية تندرج فيها عناصر لا تمت إلى المعرفة بصلة : منها مدلولات شكلت ابتداء من معارف، مثل الحاذية الكونية، ومنها مدلولات اخرى أخذت من أفراد آخرين مثل تلك التي أتت من القطب المتجمد الجنوبي. ان كلمة فكرة ستستخدم اذن لتشير الى كل ماهو موضوع للفكر، سواء كان هذا الموضوع من المعرفة أم لا، وسواء كان بسيطاً أم مركباً.

وعلى الصعيد اللسني من الأفيد أن نتذكر التمييز بين اللغة والكلام : فالكلام فعالية ؛ والعلامة اللسانية هي أجزاء هذه الفعالية ؛ لكن النسق الذي تقيمه هذه العلامات يسمى اللغة.

ومن التقليدي أن نتحدث عن مشكلة العلاقات بين اللغة والفكر، انبا في الواقع علاقات بين الفكر والأفكار من جهة، واللغة والكلام من جهة أخرى.

## (2) الاطروحات الموجودة حالياً.

تسائل بعض المفكرين ، منذ أمد بعيد، عما إذا كانت اللغة تعبر بأمان عن الفكر؛ وهذا سؤال مهم بالنظر الى الدور الذي تلعبه اللغة في العلم. إن مجرد التساؤل عن قيمة اللغة يخون ذلك الاحساس الغامض بعدم الارتباط بين اللغة والفكر ؛ وهذا الاحساس الغامض قد أكدته

النحاة الذين أشاروا دوماً إلى عيوب اللغات : يوجد عدد قليل من القواعد بدون استثناء، والذي لا يزال تابثاً إلى الآن هو أن رجال العلم قد بحثوا عن علاج لمظاهر عدم انتظام اللغات ونقاؤها ؛ فالرياضيون ابتدعوا نسقا من العلامات البيانية كي يوفروا لأنفسهم لغة صارمة، كل علامة تمثل دائما نفس الفكرة، وكل فكرة تمثلها دوماً نفس العلامة. وقد حاول مفكرون آخرون أمثال : ديكارط وليبنتز أن يخلقوا لغة عالمية : أي نسقا متماسكا من العلامات للتعبير عن أي فكرة، وسواء نجحت هذه المحاولات أم لا فإنها تظهر أن النفوس المهتومة بالدقة والمنطق شعرت دوماً بوجود نقص في اللغات وهذا الحدث بدوره يبين أن الكلام والفكر لا يتطابقان : أن تفكر ليس معناه أن نتحدث مع أنفسنا.

ليس العلماء وحدهم هم الذين أحسوا بالحاجة إلى التخلي عن اللغة لتحقيق التواصل : سيكون من الصعب جداً، بل من المستحيل أن نصف وجه إنسان باستخدام الكلام فقط ؛ عندما ترسل أوصاف مجرم ما، فإنه يضاف إلى ذلك صورته وبصمات أصابعه : أي تكمل الكلمات بأسلوب غير لغوي. ومن ناحية أخرى فإنه لو أراد رسام أن يخرج نسخاً لأحدى لوحاته، فإنه لا يفكر في أن يهتف إلى النساخ ويصف له اللوحة بكلمات حتى ينسخها هذا بدون رؤيتها : ان المعرفة الحقيقية للوحة لا يمكن تبليغها. ان لغاتنا لا تمتلك جميع الكلمات اللازمة لكي تبلغ جمع معارفنا ؛ من الواضح إذن أن ميدان معارفنا لا يتطابق مع ميدان كلماتنا.

وأخيراً عندما نرى بعض الحيوانات تحمل بعض المشكلات المعقدة تحت مراقبة علماء النفس مظهرة بذلك ذكاءها، فإننا سنكون مجبرين على القبول بان الفكر يمكن أن يمارس بدون كلام. إن الفكر الحيواني لم يتكون من احساسات، أو من صور ملموسة، أو ردود فعل طبيعية أو مكتسبة ؛ ان الحيوانات تمارس التجريد ولو أنها لا تذهب في التجريد بعيداً أكثر منا. عندما يقابل مفكر ما الانسان بالحيوان، فإنه يختار دوماً ذلك الانسان من بين المفكرين؛ لانه يوجد بعض الناس الذين لا يفكرون بتاتا أفضل من الحيوانات، ولو أنهم يتكلمون : إننا لسنا كلنا أذكىاء.

وعلى الرغم من كل ذلك فإنه وجد في كل حين بعض المفكرين الذين يثبتون وحدة اللغة والفكر أو تطابقهما. إن كلمة لوجوس logos تشير إلى الاثنين معا. وفي أوائل القرن التاسع عشر، عندما أصبحت دراسة اللغات علماً أعلن هومبولت Humboldt بصراحة وحدة اللغة والعقلية الوطنية ؛ وما يزال أنصار هذا الرأي في البلدان الناطقة بالألمانية.

ويدخل ف. دوسوسور F. de Saussure في نفس الاتجاه إذ يقول : « سيكولوجياً، ويغض النظر عن التعبير بالكلمات، فان فكرنا ليس الا كتلة عديمة الشكل وغير متميزة. وعلى هذا فقد اتفق الفلاسفة واللغويون على الاعتراف بأنه بدون مساعدة العلامات، سنكون غير قادرين على التمييز بين فكرتين بشكل واضح ودائم. وإذا أخذنا الفكر وحده، فإنه سيكون عبارة عن شيء غامم حيث لا يتحدد شيء بالضرورة. انه لا توجد أفكار قائمة بصورة قبلية، ولم يتميز شيء قبل ظهور اللغة » (\*Cours de linguistique, 1916).

وأضاف قائلاً بعد ذلك :

« ان اللغة تشبه وجهي ورقة، الفكر وجهها واللفظ ظهرها ولا يمكن أن نقطع الوجه دون أن نقطع الظهر في نفس الوقت ؛ وكذلك الأمر في اللغة، لا يمكن أن نعزل اللفظ عن الفكرة ولا الفكرة عن اللفظ.» (ص 163)

وإذا قبلنا مع فون وارتبور Von Wartburg بأن اللغة تشترط الفكر، فإن مشكل أصل اللغة سيكون مشكلا متعذر الحل ؛ لأن كل اختراع لغوي هو نتيجة لعمل الفكر، شعوريا أم لا. ان التردد الصوتي حدث غريزي، أي أنه مظهر لقانون طبيعي، ولكن استخدامه كوسيلة لتحقيق التواصل هو مبادرة من الفكر الانساني ؛ ان الفكر المبدع ينبغي أن يوجد قبل ظهور الكلام. خارج هذه الأطروحة التطورية، فانه لا يوجد مكان إلا لأطروحة أخرى ؛ وهي ابداع الله لكائن مفكر ومتكلم ؛ ولكن هذه الأطروحة في تناقض مع واقع عدم وراثة الطفل للغة أبويه : ان الطفل لا يتكلم الا ما سمع، ولا يتكلم الا اللغة التي سمع كلامها.

هذه الدراسة لا تدعي أنها ستتطرق لجميع المشاكل المرتبطة بالعلاقات بين الكلام والفكر. انها ستبتديء بدحض البرهانين الأساسيين لمن يؤمنون بالوحدة بين الكلام والفكر أو الارتباط الكامل بينهما ؛ وستعني في جزئها التأسيسي بأربعة أسئلة :

- 1) هل ترتبط بنية الجملة بنية موازية للفكرة المعبر عنها ؟
- 2) هل تفرض اللغة حدودا على التواصل ؟
- 3) هل تتأثر اللغة بالفكر ؟
- 4) هل يتأثر الفكر باللغة ؟

وسوف لا يكون هناك سؤال عاطفي ؛ السبب في ذلك أننا لا نعرف كيف نحده ولا كيف ندرسه. ومن المستحسن أن نعتبر العاطفة كموضوع للمعرفة فقط. إذا عرفنا عواطفنا يمكننا أن نتحدث عنها كأشياء أخرى.

### 3) اعادة تأويل واقعتين.

إن الذين يؤمنون بالارتباط التام بين الكلام والفكر يكتفون على العموم بتأكيد رأيهم دون الاستناد الى وقائع التجرية، ومع ذلك فهناك واقعتان مزعومتان من طرفهم.

لقد لوحظ بأن هذا الانسان الذي يتكلم لغةً ما يفكر تفكيراً مغايراً لأنسان آخر يتكلم لغة أخرى. وقد أكد هومبولت أن اختلاف الفكر نتج عن اختلاف اللغة، إلا أن هذا التفسير لا يفرض نفسه : يمكننا أن ندعي كذلك بأن اختلاف الفكر، أو ان هذين الاختلافيين ناتجان عن شيء ثالث. (إن هذا المشكل لا يمكن الحسم فيه إلا بعد مراجعة الوقائع المذكورة في الفقرة السادسة).

ينبغي، ابتداء من الآن، أن نلاحظ أن أطروحة هومبولت تقتضي أن كل الذين يتكلمون نفس اللغة يفكرون بطريقة واحدة ؛ لكن لا وجود لذلك : انه غالبا ما تظهر خلافات بين أفراد يتكلمون لغة واحدة. وأكثر من ذلك : فانه يحدث أن نفس الجملة يمكن أن تعبر عن أفكار متباينة ؛ ولنأخذ مثلا، هذه الجملة « طلعت الشمس » ؛ فانه لو لم يكن لدينا أي

مفهوم عن علم الفلك، لأخذنا هذه الجملة في معناها الحرفي : أي نعتقد بأن الشمس تتحرك نحو الأفق، ولكن الذين تلقوا تعليماً بالمدرسة يعلمون بأن هذه الجملة لا تتعلق بحركة الشمس وإنما تتعلق بحركة الأرض ؛ ويستمررون في القول « طلعت الشمس »، إلا أن هذا يستدعي في عقولهم أفكاراً مختلفة عن أفكار الجاهلين الذين يتكلمون معهم نفس اللغة. وقد لاحظ ج. ريل G. Ryle في كتابه (محاولات في المنطق واللغة 1951) بأن الجملة التالية : «إن اسميث ليس هو الإنسان الوحيد الذي تسلق جبل مونت بلان» يمكن أن تعبر عن فكرتين : (1) إن إنساناً واحداً فقط تسلق جبل مونت بلان، ليس هو اسميث. (2) إن اسميث صعد جبل مونت بلان، إلا أنه ليس الوحيد الذي فعل ذلك. إن فرداً واحداً يمكن أن يستخدم هاته الجملة يوماً بالمعنى الأول، ويوماً آخر بالمعنى الثاني، مما يدل على أن الفكرة لا تتطابق مع العبارة اللغوية.

علاوة على ذلك لا ينبغي أن نبحث بعيداً : إن جميع حالات تعدد المعاني بالنسبة لكلمة واحدة Polysémie تثبت نفس الشيء. يمكن أن نقول « كم يساوي هذا الثور ؟ » بحضور حيوان حي أو بحضور قطعة لحم : إن كل فرنسي يعرف جيداً بأن كلمة ثور لها أكثر من معنى، وهذا يعني أن كلمة واحدة ما لا ترتبط دوماً بنفس الفكرة.

الخلاصة، أنه سيكون من الخطأ القول بأن نفس الأسلوب اللغوي يستدعي ضرورة نفس الفكرة في عقل كل من يستخدمه : إنه لا يمكننا إذن أن نقول بأن اللغة تشرط الفكر. وقد لاحظ جون بولهان Jean Paulhan (Les fleurs de tarbes 1941) بأن من يدعون أن اللغة تشرط الفكر لا يضعون أنفسهم كأمثلة : أنهم يتكلمون دوماً عن أفراد آخرين. عندما يدعي إنسان ما أن فكر إنسان آخر مشروط بلغته، فإن ذلك يتضمن أن فكره هو ليس كذلك : والا فإنه لم يلاحظ ذلك.

إن أنصار المطابقة بين الكلام والفكر يسوقون واقعة أخرى : وهي ما يوصف بقولهم أنه لكي نتكلم لغة ما، فيلزم أن نفكر بهذه اللغة. وهذا وصف سيء لواقع تجربة عامة : لكي يتكلم أي فرد لغة أجنبية بسهولة، فإنه لا ينبغي أن يصوغ فكرته أولاً في لغته الأم ثم يترجم بعد ذلك هذه الصياغة إلى اللغة الأجنبية، بل يلزم أن يمر مباشرة من الفكرة إلى صياغتها باللغة الأجنبية. إن الفرد المزدوج اللغة هو الذي يختار، حين تكون لديه فكرة يريد التعبير عنها، بين صيغتين لغويتين : إحدى هاتين الصيغتين في اللغة الأم، والأخرى في اللغة الأجنبية، وهذا لا يدل فقط على أن الفكرة المعبر عنها متميزة عن الصيغ التي عبرت عنها، بل يدل كذلك على أن الفعلية النفسية التي اختارت بين العبارات، أي الفكر، ليست متأثرة فقط بهذه الصيغ. إننا لا نفكر إذن بأية لغة من حيث أننا قادرون على المقارنة بين صيغتين من لغتين مختلفتين، إذا ما فكرنا بلغتنا الأم، فسيكون من المستحيل علينا أن نفكر بلغة أخرى.

حقاً، قد يحدث أن نتحدث ذهنياً، إن هذه اللغة الباطنية شيء واقع. ولكن يمكننا أن نتحدث ذهنياً بأية لغة تعلمناها، وبمكنا أن نقارن بين العبارات اللغوية تختلف هذه اللغات الباطنية، إذن فالفكر الذي يقارن بينهما يلزم أن يكون مستقلاً عن هاته اللغات، والفكرة التي يقابلها الفكر بالعبارات هي أيضاً متميزة عن هاته العبارات.

إن من درسوا العلاقات بين اللغة والفكر خلطوا أحيانا بين اللغة الباطنية والفكر. هاته اللغة الباطنية قد درست من طرف علماء النفس، وهي لا تختلف بتاتا عن اللغة الشفوية المستخدمة في التواصل، إذن فليست هناك فائدة كبرى في المقارنة بين هاتين الصورتين للغة. ومن الأفضل أن نبعد نهائيا اللغة الباطنية لنبتدى، وندرس فقط العلاقات بين الفكر والكلام، وإذا ما عرفت هذه العلاقات جيدا، فسيكون من الممكن الرجوع الى اللغة الباطنية لدراسة الدور الملحوظ الذي يمكن أن تلعبه في تنظيم أفكارنا.

#### (4) المنهج :

إن المعرفة لا تظهر لنا، كما لاحظنا ذلك من قبل، الا من خلال الكلمات، وهذا أمرٌ يدهي بالنسبة لكل فكرة. ويمكننا أن نتشكك في كون تصورنا لأفكارنا ولعمل الفكر مشروطا كلية باللغة والكلام، وفي أنه يتعين على كل مقارنة ان تستخلص الاتفاق الشامل بين الفكر واللغة. وقد أشار بلومفيلد L. Bloomfield إلى كل هذا، وسمح لنفسه بأن يرفض ما أسماه بالترعة الذهنية Le mentalisme واقتراح دراسة ميكانيكية للغة مبعدا كل إشارة للفكر :

«مما يؤخذ على مبادئ «بول» انها تركز كثيرا على التأويلات السيكلوجية فهو يرافق تصريحاته المتعلقة باللغة بشروح حول العمليات العقلية التي يخضع لها المتكلمون ضمينا. والحقيقة الوحيدة لهاته العمليات العقلية أنها عمليات لسانية، وأنها لا تضيف شيئا للمحادثة بقدر ما تجعلها غامضة. توجد مع ذلك وسيلة بسيطة جدا — وهي وسيلة استخدمت دائما — كي نحصل من أفكارنا ومن فكرنا على معلومات لا تكون مشروطة بالكلام أو باللغة. فمثلا عندما نتحدث عن الحركة التي تظهر بها الشمس، يمكننا أن نقول إما «تطلع الشمس» واما «تدور الأرض» وكل شخص متعلم يعرف بأن هاتين الجملتين، ولو أنهما لا تتعادلان، فإنهما تشيران إلى نفس الواقعة المعروفة، وعندما نتحدث عن إصدار جديد لطوايح بريدية يمكننا أن نقول إما «تغير لون الطوايح» وإما «أن لون الطوايح الجديدة يختلف عن القديمة»، وفي هاته المرة فإن الجملتين متعادلان تماما. ولكي نقيم هذا التعادل يجب ألا يكون فكرنا مشروطا بالعبارات اللغوية، ينبغي أن تكون الفكرة متميزة عن الصيغ اننا نجهل كيف يعمل فكرنا، إلا أن هذا لا يهم، ان الحدث المهم، هو أن يصل الفكر الى الفكرة الخالصة ان اللغة الماورائية métalangage التي يتحدث عنها في أمريكا بالخصوص ليست شيئا آخر إلا تطبيقا لهذا المنهج، وتقوم الاهتمامات اللغوية دوما على تفسير بعض الجمل بجمل أخرى وهذا يعني ربط جمل مختلفة بفكرة واحدة وفي كل مرة يعطي فيها القاموس معنى لكلمة ما، فانه يلجأ الى الموازنة بين عبارتين مختلفتين، وهذا ما يفترض فكرا قادرا على مقابلة العبارات بالفكرة.

إن الترعة الذهنية التي يتعين رفضها هي تلك التي لا تتحمل أي اختبار، وبالعكس، فمن المشروع أن نصادر على واقعة سيكلوجية لتفسير واقعة لغوية اذا كان بالإمكان اختبار هذه الواقعة السيكلوجية بواسطة واقعة لغوية أخرى أو بواسطة واقعة غير لغوية.

## 5) بنية الجملة :

إن الهدف الأساسي للنحو هو دراسة بنية الجملة، أي الكيفية التي تنتظم بها العلامات داخل الجملة. ومن المعلوم أن أغلب الناس ينفرون من الاحتكام إلى النحو، لكل واحد قاموسه الذي يستعمله بسهولة، ولكن عدد الذين يعرفون النحو ويرجعون إليه قليل جدا، إن معظم الناس يجيدون النحو منفردا، وذلك لسبب وجيه وهو : إن قواعد النحو لا تتركز على أساس عقلي.

إننا ندرِك ذلك منذ الخطوة الأولى، أي بمجرد أن نعتبر أن جملة ما منتظمة داخليا articulée أي مركبة من علامات. من قبل كانوا يفككون الجملة إلى كلمات : وفي 1913 كان Meillet ما يزال يعتبر أن وحدة اللغة المنتظمة هي الكلمة، وعرف هذه الوحدة بأنها ارتباط معنى لمجموعة من الأصوات وباستعمال النحو. إلا أنه لم يقل لنا كيف تقوم وحدة المعنى، وبالنسبة إليه فإن المعنى كان عبارة عن فكرة، وترك لعلماء النفس صلاحية تحديد ما يشكل وحدة الفكرة، وللأسف فإن علماء النفس لم يكونوا قادرين على ذلك. ومن ناحية أخرى، فقد لاحظ فندريس Vendryes في نفس الحقبة بأنه توجد كلمات خالية من المعنى، إذن فلا يمكن أن نأخذ وحدة المعنى كميّار لوحدة الكلمة. إن مفصلة الجملة إلى كلمات لا يناظر مفصلة الأفكار بشكل مواز.

وفي الوقت الحاضر فإننا لا نعتبر الكلمة كوحدة اللغة المنتظمة، نرى هذه الوحدة في ما سماه دوسوسور العلامة، وفي ما سماه آخرون مورفيم، أو شيئا آخر غير هذا. إنه لا يلزم أن يكون لكل علامة معنى، وإنما يجب أن تكون لها وظيفة : لنهيم على سبيل المثال بالعبارتين التاليتين : « هو نظر » (Il a regardé) « وهو منظور إليه » (Il est regardé) إن لهما معنى مختلفا، ومن المستحيل أن نسنده معنى خاصا للعلامتين (a) و (est) معزولين، إنهما خاليان من المعنى، ولو أنهما تقومان بوظيفة هامة عند تركيبهما مع إسم المفعول.

إن العلامة هي العنصر الأصغر الذي يسمح بعمليتين، بالنسبة للنطق والدلالة معا، الأولى أنها تسمح بالمقابلة بين جملتين في حين أنهما متشابهتان، والثانية أنها تسمح بالمقارنة بين جملتين في حين أنهما غير متشابهتين. إن هذا التحديد لا يعتمد إلا على وقائع لغوية، إن الدلالة التي هي موضوع اهتمامنا هي دلالة الجملة بأكملها : لا يقوم انتظام الجملة على أساس انتظام افتراضي للفكرة المعبر عنها وتعبير آخر نقول : إن تمفصل الجملة قوانينه الخاصة التي لا ترتبط بالفكر. حقا، يحدث في كثير من الأحيان أن نجد أن بعض العلامات تطابق بدقة أشياء أو كائنات معروفة، ونستعمل هذه المطابقة عندما نلصق بطائئ على أشياء معروضة، أو عندما نكتب كلمة «مدخل» أو «مخرج» فوق باب ما، إلا أن ذلك لا يرتبط بقاعدة، لنأخذ مثلا العبارات التالية «تمثال فارس» إنها تحتوي على كلمتين، وبالمقابل، فإن العبارة «تمثال إنسان على فرس» تحتوي على أربع كلمات ولو أنها تشير إلى نفس الشيء بالضبط : وسيكون من المستحيل أن نقول كم هي عناصر المعرفة المذكورة في هاتين العبارتين. ومن ناحية أخرى فإن الكلمات البسيطة تدل دوماً على أفكار معقدة. فكلمة (أب) تعني : «كائنا إنسانيا بالتعاون مع امرأة أو جد كائنا إنسانيا آخر واحدا على الأقل»، وكلمة واحد

تعني «الذي لا يشترك مع آخرين». انه لا يوجد إذن تطابق دقيق بين وحدة الكلمات ووحدة الأفكار، ان بنية الجملة لا تناظر بنية الأفكار المعبر عنها بشكل مواز.

إن نظام العلامات أو الكلمات في ارتباط وثيق مع مسألة تنظيم الجمل. ففي الفرنسية نقول الحديقة العمومية Le parc public وفي الإنجليزية نقول العكس the public parc، وسيكون من المستحيل أن نقرر معرفياً أو منطقياً ما اذا كان من اللازم أن يسبق النعت المنعوت أو يلحق به، ان كل لغة تحمل هذا المشكل حسب تقاليدها، لا على حسب نظام خيالي للأفكار.

وحتى مبدأ تتابع الكلمات فانه تتابع لغوي محض : ان هذا النظام يوجد فقط لأن أعضائنا الصوتية لا تسمح لنا بنطق كلمتين في آن واحد، ذلك لأن الكلمة السابقة ينبغي أن تنتهي حتى نتمكن من نطق الكلمة اللاحقة. ومن المسلم به أن قانوناً مثل هذا لا يحكم أفكارنا : لكي نفكر، فمن الضروري أن نربط بين أفكار، وهذا يعني أنها يلزم أن تكون موجودة بصفة متأنية في الذهن. ومع ذلك توجد بعض اللغات التي تسمح بالاتجاه المتواتر لعدة علامات : اذ يمكن للترايبي (1) Trapiste أن يستخدم في احدى حركاته، يديه ورأسه في آن واحد. وفيما يتعلق بمعنى الكلمات فان الأمر يختلف : فلنكن نفهم جملة ما، ينبغي عند بلوغنا آخر كلمة فيها، أن نتذكر معنى كل الكلمات السابقة، ومن هنا يظهر لنا عدم ارتباط آخر بين الكلام والفكر. ان هناك أسماء كثيرة لها أكثر من معنى، وعند سماعنا لها ينبغي أن نختار المعنى الذي يناسبها داخل النص الذي وردت فيه، وعلى سبيل المثال لعبارة : «لا بد أن تكون الشرطة على علم» معنيان : فيما اذا كانت متبوعة بالعبارة «في أقرب وقت ممكن» أو بالعبارة «مادامت تلفنت لي» في الحالة الأولى، فان فعل (يلزم) يعبر عن ضرورة، وفي الحالة الثانية يعبر عن احتمال. واختيار المعنى الملائم لا يمكن أن يكون في اللحظة التي ترد فيها كلمة (لا بد) : بل يكون اختياره عندما تنتهي الجملة، وفي هذه اللحظة يجب على الفكر أن يرجع الى الوراء نحو كلمة (لا بد). نرى اذن بان النظام الذي تظهر به الأفكار في العقل لا يقابل النظام الذي تظهر به الكلمات في الجملة.

إن العلاقة بين الموضوع والمحمول تنكشف كذلك بدون أساس سيكولوجي وفي الماضي كان ينسب لهذه العلاقة معنى، وكان يعتقد بأنها تتوافق مع علاقة أفكار، فقد ابتدء بالقول بأن الموضوع يشير الى ما نتكلم عنه وأن المحمول يشير الى ما قلناه عن الموضوع، لكن يكفي أن نأخذ جملة مثل «التقى أخي بأختك» حتى نكتشف بأننا نتحدث عن ثلاثة أشياء : أخي، اختك، لقاؤهما، وينبغي ان نستنتج اذن بأن هذه الجملة تحتوي على ثلاثة موضوعات ولا محمول لها.

ويكتفي عدد كبير من المؤلفين اليوم بإحصاء مختلف المعاني التي يمكن، حسب رأيهم، أن تعبر عن علاقة الفاعل بالفعل الذي يشكل نواة المحمول : يقولون بأن الموضوع هو الذي يقوم بالعمل المعبر عنه بالفعل، أو ما يتحمل هذا الفعل، أو الذي يكون في الحالة المعبر عنها بالفعل، أو الذي سيصبح ما عبر عنه الفعل، إلا أن هذا الاحصاء بعيد عن الكمال : انه لم يذكر العاطفة (يحب أمه)، ولا الملكية (له منزل)، ولا المكان (غطى الثلج الأرض)، ولا الزمان

(يتطلب هذا العمل أسبوعاً)، لم يقدم لنا أحد القائمة الكاملة للمعاني التي يمكن ان تكون للأفعال، ولنفترض أنه تم التوصل الى ذلك، فسيبقى علينا أن نثبت جميع الحالات المشتركة بين كل الأفعال والحالات التي تخص كل فعل. فلو قلنا بأن كل فعل يعبر عن حدث أو عن عملية، فإننا نستخدم كلمات أحداث أو عمليات، كمصادر، كي نحدد المعنى المشترك بين كل الأفعال، ولو أمكن لمصدر ما Substantif أن يحدد معنى فعل ما، فإن هذا المعنى ليس خاصاً بالفعل. اذن فليس هناك معنى خاص لعلاقة الفاعل بالفعل، ولا لعلاقة الموضوع بالمحمول بالتالي.

علاوة على ذلك فإن وجود التقابل بين صيغة التعدي وصيغة اللزوم يكفي لأن يهدم كل أمل في إعطاء معنى خاص للعلاقة بين الفاعل والفعل. فقد أشير الى الكائن الذي قام بفعل الأكل في هذه الجملة «أكل القط الفأر» بالفاعل، لكن هذه الجملة «أكل الفأر من طرف القط» لها نفس معنى الجملة السابقة بالضبط، إلا أن الكائن الذي قام بالفعل هنا مشار اليه بنائب الفاعل : اذن فالعلاقة بين الكائن الذي قام بالفعل وبين فعله يمكن أن يعبر عنها بعلاقات تركيبية مختلفة.

بالإضافة إلى ذلك فإنه توجد بعض الحالات التي يشير فيها الفاعل والفعل الى نفس الشيء، ففعل عصف في الجملة «عصف الريح» يدل على الريح، وكذلك الأمر عندما نقول «ان النار تحرق» فإن الاسم : (النار) والفعل : (أحرق) يشيران الى نفس السيرة الكيميائية. فمادام الفاعل والفعل يشيران الى نفس الشيء، فإنه لا يمكن أن توجد في أذهاننا علاقة بين فكرتين. وأخيراً ينبغي ذكر الفواعل التي لا معنى لها : فضمير الفاعل في الجملة «Il pleut» ليس له أي معنى، ولا يوجد في الجملة إلا لأنه من خصائص اللغة الفرنسية، ان لكل فعل في الصيغة الإشارية l'indicatif فاعلاً، فعلاقة الفاعل بالفعل لا تقابل أية علاقة بين أفكار.

والخلاصة، أنه يمكن أن يعبر عن نفس العلاقة بين أفكار بعلاقات تركيبية مختلفة كما أن نفس التركيبية يمكن أن تعبر عن علاقات مختلفة بين أفكار أو أن لا تعبر عن أية فكرة.

إن أقسام الكلام قد أسالت الكثير من المداد لأنه كان يراد القول بأن هذا التصنيف اللغوي يقابل تصنيف الأفكار : فقد زعم بأن الأسماء تستعمل لتدل على الكائنات والأشياء، وأن النعوت تستخدم لتشير الى الصفات، والأفعال لتدل على العمليات، وحروف الجر والظروف لتدل على العلاقات، الخ. لكن يكفي أن نختار علاقة مثل الأسبقية حتى نرى كيف تنقض هذه النظرية : إننا لا نتوفر فقط على الظرف (أمام) بل يوجد كذلك ظرف الزمان (قبل أن) (avant que)، ويوجد الفعل (تقدم)، والمصدر (أسبقية)، والنعته (متقدم) والاسم المنهي (سابقاً)، ويمكن أن ترتبط نفس الفكرة بمختلف أقسام الكلام : انه من الواضح اذن أن تصنيف الكلمات الى أجزاء من الحديث لا يتطابق مع تصنيف الأفكار بالإضافة الي ذلك فان تصنيف الأفكار أمر تم ابتكاره لمواجهة الظرف، إن هذا التصنيف لا يأخذ بعين الاعتبار كل أنواع الأفكار : وعلى سبيل المثال فالمشاعر، والحقوق الاجتماعية، والزمان والمكان كلها محذوفة. ان أقسام الكلام تستند الى معيار تركيبية Syntaxique : فالكلمات ترتب

حسب الوظائف التي يمكن أن تقوم بها في ارتباط مع الكلمات الأخرى، وهذا المعيار لا ينطبق على الأفكار.

إن المقولة النحوية للعدد تكشف كذلك عن عدم اتفاق جلي مع أفكارنا. لدينا في لغاتنا الأوروبية المعاصرة عددان هما : المفرد والجمع، مع أن علماء الرياضيات يعلمون بأن هناك مالا نهاية له من الأعداد ولا جدوى من ارادة الربط بين الأفكار والكلمات بقولنا أن الجمع يمثل وحده جميع الأعداد باستثناء الوحدة ؛ ذلك أنه سيبقى العدد صفر الذي لا يتصور في النحو، وهذا يقود الى إحالات : فنقول «جيش بدون خيول»، و «فارس بدون فرس»، إن عدد الخيول صفر، ولكننا نستخدم المفرد تارة والجمع تارة أخرى ويتجلى لنا غموض آخر عندما نتأمل الحالة التي يمتلك فيها كل شخص نموذجاً لشيء واحد، إن الاستعمال في الفرنسية يتردد بين «امتطوا حصانهم» و «امتطوا خيولهم». وهناك بعض الجمل تبعث على الضحك لو قلنا «اتوا مع زوجتهم»، فيمكن أن نفكر بأن لهم جميعاً زوجة واحدة، ولكن لو قلنا «اتوا مع زوجاتهم»، فيمكن أن نعتقد بأن لكل واحد منهم زوجات. وللخروج من هذا المشكل نستعمل كلمة (كل واحد) chacun فنقول : «كل واحد أتى مع زوجته»، ولكن مع ذلك نستعمل المفرد مع أن الأمر يتعلق بعدة أشخاص.

لم يكن موضوع حديثنا، حتى الآن، إلا عن المدلولات النحوية، أي عن المدلولات المتعلقة بانتظام الجملة، وقد تمكنا من أن نرى بأن هذه المدلولات لغوية خالصة، وبين الفينة والأخرى كانت ترتبط من قريب أو من بعيد بفكرة ما، إلا أن الغالب هو أن عدم الارتباط بينها واضح. وقد توصلنا الى هذه النتيجة دون أن نقابل بين لغة وأخرى، كما فعل ذلك هامبولت، ويستطيع الانسان اذا ما تأمل قليلا في لغته الأم، أن يدرك تماما التنافر بين الكلام والفكر، وهذه حجة اضافية بأن اللغة لا تشرط الفكر.

إن الأمثلة اللاحقة ستكون من مستوى آخر : إنها تتعلق بالبرهنة على عدم انتظام اللغات، ونقص تناسقها المنطقي. لقد قيل سابقا بأن المبدأ الذي يريد أن يجعل كل علامة تترجم دوما نفس الفكرة ليس له تطبيق صارم في اللغات، يوجد مع ذلك عدد من الحالات التي لا تكون فيها اللغات منطقية مع نفسها، وهذه الحالات قد عرفت منذ أمد بعيد : الجناس homonymie وتعدد معاني كلمة واحدة polysémie واللغة المجازية langage figuré والتعبير المسبوك expression idiomatique والمفعول المطلق complément interne، وكلها مصطلحات تولدت من ملاحظة الانفصال بين اللغة والفكر.

ان حالات تعدد المعاني لكلمة واحدة كثيرة الى حد أننا لا يمكننا تصنيفها : إننا ندرس الصلة بين مختلف معاني نفس الكلمة انطلاقا من المعنى الذي نعتقد أنه الأقدم، ومن هنا تولد مدلول اللغة المجازية. وفي كثير من الحالات يمكننا أن نتبين العلاقة بين الأفكار خلف المجاز : فلو أخذت شبكة صيد حقيقية إسم رعادة<sup>(2)</sup> torpille فذلك لأن خصائصها تشبه خصائص ذلك السمك، ونرى أن هناك مجازا . ولو قلنا شرب كأسا، فان الفكر حينئذ يربط بين المحتوى والشكل : ولنا في هذه الحالة كناية . وليس على الفكر، بعد ذلك، إلا أن يميز تماما بين رعادة السمك torpille-poisson وريادة الشبكة torpille-engin بين الكأس

الذي يشرب والكأس الذي يكسر. إن بعض المجازات تظهر لنا غريبة أو غير متحققة :  
لنأخذ مثلا هذه العبارة «أضاع الحياة»، اننا نستعمل فعل (أضاع) هنا كما لو كانت الحياة  
موضوعا ممتلكا يمكن أن يضيع ونجده مرة ثانية، أو يباع ويشترى، ان كل الناس يعلمون بأن  
هذا خطأ. وعندما يتحدث لغوي ما عن اهتراء بعض الكلمات، كما لو كانت الكلمات  
موضوعات مادية تفقد شيئا فشيئا جوهرها، فإنه في الواقع يشير إلى الضعف التدريجي  
لاستجابة المستمع لبعض الكلمات. وعلى العموم فإن اللغة المجازية صورة من صور التكاسل:  
فيدل أن نخترع كلمة جديدة نعطي معنى جديدا لكلمة قديمة لكن العقل لا يتخدد : انه  
لا يخلط بين المعاني.

ويمكن أن نقوم بنفس البرهان بالنسبة للجناس فكلمة police يمكن أن تشير الى عقدة  
التأمين أو تدل على مجموعة رجال الشرطة، إن هاتين الفكرتين لا تشتركان في شيء، لكن اللغة  
تعبير عنهما بنفس الكلمة. ويقدم الترادف الحالة المقابلة : فكلمتا *sansonne* زرزور و  
*étourneau* يمكن أن نستعمل احدهما بدل الأخرى، وهاتان الكلمتان لا ترتبطان إلا بفكرة  
واحدة.

وفي اطار ما يسمى بالتعبير المسبوك، فان معنى مجموعة من الكلمات ليس هو على  
العموم مجموع معاني الكلمات التي تكونها، فمثلا من المستحيل القول بأن معنى من المعاني  
العادية لفعل *porter* يوجد في الجملة ( *comment vous portez-vous ?* ) «كيف  
حالك؟». ينبغي أن نعلم أنه بتركيب هذا الفعل مع ضمير متصل ومع ظرف الحال فانه  
يشير الى الحالة الصحية.

ان المفعول المطلق غير منطقي كذلك، فمثلا يمكن أن نقول «مات موتا طبيعيا»، «عاش  
حياة مغامرات» *Il a vécu une vie d'aventure* «ابتسم ابتسامة مرة»، إن الفعل في  
هاته الجمل مصحوب بإسم يشير الى نفس الحدث، وهذه طريقة تسمح لنا في بعض  
الحالات أن نعطي للفعل مفعولا به لا نعرف كيف نعطيه له بصورة أخرى : من المستحيل  
القول «مات طبيعيا».

وكذلك توجد كل الحالات التي صنفنا تحت زاوية ضخمة من الاستثناء أو من عدم  
الانتظام، فمثلا في النحو الفرنسي لا يمكن أن يصرف الفعل الذي يأتي بعد الحرف الذي  
يعبر عن الشرط في المستقبل : نقول ( *S'il pleut demain, je résterai à la maison* )  
منطقيا يلزم أن يصرف الفعلان في المستقبل.

وأخيرا ينبغي ذكر الحالات التي لم نوها اهتماما في النحو. نسمع أحيانا القول «إن الفرنك  
هو الفرنك» اذا أخذت هذه الجملة حرفيا فستكون عبارة عن لغو لا يعبر عن شيء، ولكن ما  
يراد قوله هنا هو أن الفرنك ليس مبلغا حقيرا، وكذلك لو قلنا «إن الفرنك ليس هو الفرنك»  
فان ذلك يعني بأن القدرة الشرائية للفرنك قد انخفضت. إن المنطق يلزما بالتخلي عن هذه  
الجمل، لكننا نستمر في استعمالها دون أن نخطيء بصددنا فكرنا.

ان الكاتب الإنجليزي لويس كارول، الذي كان منطيقا، يمزح في كتبه المخصصة للأطفال  
باطلاعنا بوضوح على السمة غير المنطقية للغة الإنجليزية ونجد المقطع التالي في «أليس من

خلال المرأة» : قالت : أليس «إنني لا أرى أحدا في الطريق» فعقب عليها الملك بنبرة متقطعة — «أتمنى لو كانت لي مثل هذه العيون حتى لا أرى أحدا ! وعلى هذا البعد كذلك! لذا، فهذا كل ما أستطيع أن أفعل لأرى أناسا حقيقيين بفضل هذا الضوء».

إن الجانب الهزلي في هذا المقطع ينتج من كون أن القارئ يميز بين المعنى الحرفي (رأى أحدا لا يوجد)، والمعنى الواقعي (لم ير الا ما هو كائن)، ان الفكر يدرك تماما أن العبارة لا تتطابق مع الفكرة.

وقد تم البحث أحيانا في المقارنة بين اللغات لتحديد أيها منطقي أكثر أو أيها أكثر وضوحا. وهذا مشكل زائف : إن أي لغة لا توجد باستقلال عن الناس الذين يتكلمون بها، فليست اللغة هي الواضحة أو المنطقية، بل الانسان الذي يستعملها، وفي كل البلدان هناك أفراد لهم أفكار واضحة يعبرون عنها تعبيرا جيدا، وهناك أفراد لهم أفكار غامضة يعبرون عنها تعبيرا رديئا. وكل لغة تقوم بدورها على الوجه الأكمل إذا كان لكل من المستمع والمتكلم نفس المعرفة بهذه اللغة ونفس المعرفة بالوقائع التي يتحدثون عنها.

## 6) حدود التواصل :

رغم أن انتظام الجملة يخضع لقواعد لا ترتكز على أساس عقلي، فإن اللغة تسمح بالتواصل وتحقيق تواصل أحسن، وإذا أريد اثبات هذا فلا يسعنا الا أن نستشهد بالدقة التي نجدها في نصوص القانون وفي النصوص العلمية. ما يؤمن تحقيق التواصل هو المعنى الاجمالي للجملة، ان بنيتها الداخلية لا تتعلق مباشرة بالفكرة المعبر عنها، ان هذا التفصيل ليس الا طريقة اقتصادية لكي نحصل على جمل مختلفة : كما أنه بعدد مختصر من **الصوتيات phonèmes** يمكننا أن نكون آلاف العلامات، كذلك فإننا بعدد محدود من العلامات يمكننا أن ننشئ عدداً غير محدود من الجمل المختلفة : ليس لكل علامة معنى، ولكن لكل جملة معنى، وهذا المعنى في علاقة وثيقة مع الفكرة.

لكي نفهم هذه العلاقة بين المعنى والفكرة، ينبغي الرجوع الى الاستمولوجيا. يجب التمييز بين المعرفة الفردية والمعرفة المشتركة بين أفراد من نفس المجموعة اللغوية : لا يمكننا أن نتواصل الا على أساس المعارف المشتركة، لأن فهمنا لانسان آخر، يعني اعدادنا في عقولنا أفكارا مشابهة لأفكار الفرد الذي يكلمنا، ولا يمكننا أن نقوم بهذا الاعداد الا اذا استخدمنا مواد موجودة في عقولنا، أي باستخدامنا لمعارفنا السابقة. ولناخذ على سبيل المثال الجملة التالية : «ان أبي مريض»، ان من يتلفظ بهذه الجملة، يعرف بأن لأبيه مثلا خمسين عاما، وعينين زرقاوين، وشعرا أبيض، وبه نزلة رئوية، ولكن لفهم هذه الجملة فان المستمع ليس بحاجة الى معرفة مماثلة لمعرفة المتكلم، ولا ينبغي أن تظهر له الجملة المظهر الفيزيائي وطبيعة مرض الأب، ان الجملة لا تذكر له الا المعارف العامة التي يمكن لكل واحد منا أن يربطها بهاته الكلمات الثلاث «ان أبي مريض»، ان معرفة المتكلم الفردية عن أبيه وعن مرضه لا تكون دلالة الجملة «ان أبي مريض»، ان هذه الدلالة واقعة اجتماعية : أي ما هو مشترك بين المعارف الفردية لكل الأفراد الذين يستعملون في كل مرة هاته الكلمات الثلاث. وقد صيغت الجملة لكي تبلغ هذا، لا أكثر، وهي تبلغ كما ينبغي.

وقد توصلنا الى دليل آخر تجريبي للتمييز بين المعرفة الفردية والمعرفة المشتركة من خلال الأدب الروائي. عندما أقرأ رواية تفتقر لبعض الشخصيات، فإني أتصور الكائنات والأوضاع اعتمادا على تجريبي الشخصية لتصور الكائنات والأوضاع المماثلة، وأقدر — اذا كنت فنا — أن أشخص هذه الرواية، أي أن أعطي شكلا عيانا للكائنات والأوضاع كما لو كنت قد عرفتها واقعا. لكن لو شُخصَ قارئ آخر نفس الرواية دون أن يعرف تشخيصي لها فانه سيتأثر بتجاربه الشخصية، وسيختلف تشخيصه لها عن تشخيصي. نرى اذن الفرق القائم بين الفكرة التي نجعلنا نتكلم وبين الدلالة المنقولة، ان مختلف الفنانين الذين شخصوا الرواية منفصلين، كلهم فهموا الدلالة تماما : ان التواصل واحد في كل الحالات، الا أن الأفكار المثارة عند الشخصين ليست واحدة وتختلف عن أفكار الكاتب.

إن ما يميز معرفة أي فرد عن معارف الآخرين يفلت من التبليغ وقد قال فر. بولمان : «لا أحد يفهم الآخر كما ينبغي»، ولا نعلم شعراء يشكون من استحالة التعبير عما يشعرون به بعمق، وعمما لديهم من أفكار أصيلة. ان الكلمات لا تذكر إلا المعارف المشتركة، وبفضل هذه المعارف المشتركة، نتوصل الى الالقاء ببعض الأفكار الشخصية في عقول السامعين، ولكننا لا نبلغ ذلك إلا عندما تكون لهذه الأفكار الشخصية قاعدة ترتكز عليها هذه التجارب الشخصية التي عاشها بدوره من يستمع لنا ومن يبحث عن التعبير عما يتعلق بتجاربه الشخصية الخاصة يعتقد بأنه يمكن أن ينجح في ذلك، ولكنه هو الذي يؤمن وحده بذلك، أما الآخرون فهم لا يفهمونه : لا يمكن أن يتحقق التواصل لأنه ليست هناك معرفة مشتركة. اننا لا نعبر عن أفكارنا إلا بقدر ما نبلغها.

ونجد كذلك في الرسم وفي الموسيقى هذا البحث عن الأصالة الذي يجعل تحقيق التواصل في خطر. عندما يقول لنا إنسان ما بأنه فهم لوحة أو قطعة موسيقية لم نستطع فهمها، فإننا نتردد في الحكم عليه : إما أن يكون ما قاله هذا الانسان صحيحا، وفي هاته الحالة فإن له تجربة مشتركة مع الفنان سمحت له بالفهم، واما أن يكون هذا الانسان لا يفهم شيئا أكثر منا، إلا أنه أراد أن يوهنا بأنه ينتمي الى النخبة القليلة التي تمتلك معرفة نادرة. إننا نقبل قليلا بأن الفنان أراد أن يعبر عن شيء ما، ولكن من المستحيل علينا أن نحكم عما اذا كان قد نجح في ذلك.

وما يسميه علماء التربية بالثقافة العامة هي بكل تحديد المعارف المشتركة المنبثقة عن شكلية من أشكال الحضارة، إننا ننشئ بهذه الثقافة العامة لأنها تسمح لكل الناس الذين يمتلكونها بأن يتفاهموا بسهولة في جميع الأحوال. أضف الى ذلك أن الحضارة تتوحد عبر العالم، ويصبح من السهل فهمها من بلد الى آخر، لكن سيكون دوماً لمجموعات من الأفراد معارف مشتركة ليست لدى المجموعات الأخرى، وهذه الاختلافات هي التي ستعوق دوما تحقيق التواصل. فليست الاختلافات في اللغة هي سبب الاختلافات في الفكر، بل العكس، اختلافات الفكر هي سبب الاختلافات في اللغة.

وبما أن أي لغة لا تقوم بوظيفتها إلا على أساس معارف مشتركة فهذا، احتيالا، السبب الرئيسي في القلق الذي يشعر به الناس دوما فيما يخص قيمة لغتهم.

ان الدلالة بسمتها الاجتماعية تفرض حدودا هامة لإمكانية التعبير عنها : إننا لا نعبر إلا عما نبلغه، إن اللغة لا يمكن أن تفلت من الاتفاق الاجتماعي لأنها وليدته، لكن بالنسبة للعلم فإن هذا التحديد أمر تلقائي : إن العلم يبحث عن الحقيقة، أي عن اتفاق المعارف، والمعارف الفردية لا تهمه إلا إذا أمكن أن تصبح ملكا عاما، وألغى وجد هذا الملك العام، فإن الناس يجدون الوسيلة للتعبير عنه.

توجد مع ذلك حدود لامكانيات اللغات، حتى فيما يخص المعارف المشتركة. لقد قيل سابقا في الفقرة الثانية بأننا نفضل أحيانا لغة أكثر ملائمة. ان ربما ما هو على العموم الوسيلة الجيدة لإيصال المعرفة بأحد الأشكال. وهناك ملاحظة ماثلة يلزم الادلاء بها بخصوص الرموز الرياضية، إن بعض الصيغ المعقدة لا يمكن أن يعبر عنها بكلمات، ونتخلص من ذلك الاشكال بطريقة يمكن تمديدتها لتشمل حتى الصيغ المترجمة. فمثلا يمكن أن تترجم المعادلة (لـ = ج) بمجملته مثل «قسمة عدد على ثاب تعطي ثالثا»، إلا أن هذا لا يمكن أن يطبق عمليا : وعلى العموم نقول «أ على ب يساوي ج»، وهذه ليست ترجمة ولكنها وصف للرموز ولوضعها على الورقة. وهذه هي الطريقة التي يلزم أن نلجأ إليها عندما لا تترجم صيغة ما لغويا.

من الصعب أن نثبت قبليا — أي قبل أن نحاول — بأنه سيكون من المستحيل على الناس أن يخترعوا الأساليب اللغوية للتعبير عن جميع المعارف المشتركة، ولنفتقر أن هذا ممكن، فيجب أن نعترف بأن الناس تراجعوا أمام هذه الصعوبة وفضلوا في بعض الحالات الأساليب غير اللغوية. إلا أن هذه الأساليب لها نفس الأساس مع الأساليب اللغوية : إنها لا تفهم إلا في نطاق ما تستند إليه من معارف مشتركة ولا تعبر إلا عما تبلغه.

## (7) تأثير الفكر :

على الصعيد التاريخي فإن تأثير الفكر في اللغة معترف به منذ أمد بعيد.

فقد خلق عدد من الباحثين في الميدان العلمي كلمات جديدة لكي يتحدثوا عما اكتشفوه أو اخترعوه : منذ نصف قرن، كان اللغويون يخلطون بين الصوت والصويت وكانوا لا يستعملون إلا كلمة صوت، وإذا كانت كلمة صوت هاته تناسب الفكرة، فسيكون من المستحيل تمييز الصوت من الصويت، لأنه لم تكن هناك إلا كلمة واحدة، لكن الدراسات قد قادت اللغويين الى إكتشاف أنه يلزم التمييز بين حدثين، وقد وجدوا كلمة صوت لكي يقيموا تميزا متعادلا داخل الكلمات. ان التغيرات الاجتماعية تؤدي الى تغيرات دلالية : فاعتناق المسيحية تمثل في اعتناق مدلولات جديدة، وقد أدت هذه المدلولات الجديدة الى العودة الى طرائق لسانية جديدة : فتارة تستعير كلمات من الإغريقية، وتارة تعطي معنى جديدا لكلمات قديمة، ولا تبقى محبوسة في إطار الاستعمال القديم. ان التجارة عرفتنا على منتجات جديدة يلزم أن تسمى، بطاطس، طماطم، شكلاته، الخ، ولكل معرفة جديدة، نجد فكرنا طريقة جديدة لكي يتحدث عنها، وهذا يعني أن الفكر يغير الاستعمال اللغوي.

وليس من الضروري أن تكون المعرفة جديدة. ففي الإنجلو — ساكسونية، كما في اللغة الألمانية اليوم ثلاثة صيغ نحوية للتذكير وللتأنيث<sup>(1)</sup> فالألمان يعلمون جيدا بأن كلمة Backfisch مذكر ولو أنها تدل على فتاة، وأن كلمة schildwache مؤنث ولو أنها تشير الى رجل، وأن Weib محايد ولو أنها تشير الى امرأة، ان علامة التذكير أو التأنيث لا تتحدد أحدا : إن المرء يحترم هذا التقليد الذي لا يضايق أحدا. ولهذا التقليد مع ذلك أساس متين، ولو أن هذا الأساس لغوي محض : ان التمييز بين الصيغ النحوية يعتمد على ما يسمى بالمتعلق L'accord، ان كلمة Backfisch مذكر لأننا نقول der Backfisch وكذلك فان Schildwache مؤنث لأننا نقول die Schildwache، وان كلمة Weib محايد لأننا نقول das weib، وبدل أن نرجع الى متعلق الضمير، يمكن أن نرجع الى متعلق النعت الذي يسبق الاسم. وكذلك كان الأمر في الإنجلو — ساكسونية — إلا أن التصريفات التي تخضع لها النعت والضمير اختلفت، وهكذا اختلفت امكانية الانفاق، وكل ذلك أدى الى ضياع أساس التذكير والتأنيث النحوي، ومع ذلك فقد رأينا أنه حدث تنظيم جديد للأصناف : كل الأسماء الدالة على الذكور من الكائنات أصبحت مذكرة وكل الأسماء الدالة على المؤنث أصبحت مؤنثة، أما الأسماء الباقية فأصبحت محايدة. إن الاستعمال الجديد للأصناف قام على أساس معرفة الجنس. وهذه المعرفة لم تكن جديدة، ولكنها تمكنت من أن تفرض نفسها وذلك نظرا لضياع الأساس القديم للأصناف. لقد أظهر لنا هذا المثال الصراع بين اتجاهين : الصراع بين احترام التقليد وبين الرغبة في جعل اللغة في ارتباط مع الفكر.

ويمكن أن نعثر على هذا الصراع في بعض الأخطاء : وقد نشر هـ. فرى (نحو الأخطاء) Grammaire des Fautes (1929) الذي بين فيه أنه بجانب الأشخاص الذين يلتزمون بالاتباع الدقيق للتقليد، هناك أشخاص لهم ميل الى تغيير الاستعمال حتى يخضع لبعض الميولات النفسية. وقد أرجع «فرى» الأخطاء المفحوصة إلى الحاجة للتشبيه والتمييز، والانجاز، والثبات، والرغبة في التعبير. وغالبا ما حدث في الماضي ان تعدلت لغة ما بفعل تأثير مماثل.

وفي نفس السياق ينبغي ذكر مشكلة وحدة الجملة. ان كل حديث كيفما كان طوله ينقسم الى وحدات نسميها جملا (أو معادلات للجملة، حسب بنيتها). ويطبق عدة أشخاص نفس التقسيم بصورة رتيبة، إلا أن الذين يعتنون بلغتهم، الذين ينتبهون لعطائهم، يخضعون لمبدأ.

وقد حاولنا استخلاص هذا المبدأ، اذ كان يعتقد أحيانا بأنه يرتبط بمبدأ متطقي أو سيكولوجي : فعرفت الجملة كتعبير عن حكم. وقد تم تجاهل وقائع كثيرة، فيجانب الجمل التي تعبر عن حكم هناك جمل أخرى تعبر عن أشياء أخرى : تعبر عن سؤال، أو عن أمر، أو عن رغبة. وقد ادعى فريق آخر من النحاة بأن كل جملة تعبر عن معنى كامل، وهذا يصدق على الحكم والأمثال، لكن هناك عددا من الجمل لا تستجيب لهذا التجديد : لنفترض أننا وجدنا جزءا من رسالة يحمل فقط الكلمات التالية : «سأحدثه عن ذلك غدا»، ان هذه الجملة صحيحة لكن لكي نعرف ماذا تعني الكلمات (أنا، هـ، عن ذلك، غدا)، يجب أن نعرف بقية الرسالة. لا تقوم وحدة الجملة على أساس وحدة الفكرة المعبر عنها، ان أي جملة ليست إلا جزءا داخل حديث ما.

فكما أن مسيرة طويلة تقسم إلى مراحل لإراحة الماشي، كذلك فإن حديثنا طويلاً يقسم إلى جمل لتيسير الحوار بين متحاورين، وخصوصاً بالنسبة للمستمع : ندير وقرعات لكي نعطي لمستمعنا الوقت لتأويل كلامنا. وهذا مثال نموذجي مستعار من جان جيونو Jean Giono (Pour saluer Melville).

«إن التقطيعات الداخلية الرهيبة تثير بصفة دائمة الناس ضد الالهة والصيد الذي يقومون به من أجل النصر الالهي لا يتم أبداً بأيدي فارغة. مهما قيل عن ذلك».

إن النقطة الموجودة قبل (مهما قيل عن ذلك) تظهر رغبة جيونو في إيجاد وقفة، ومع أن كل نحوي سيقول بأن (مهما قيل عن ذلك) جملة تابعة وهي تشكل جزءاً من الجملة التي سبقت النقطة. فإن لجيونو سبباً ما جعله يحدث هذه القطعة : إنه كان يريد أن يعطي الوقت للقارئ حتى يصوغ اعتراضه عليه، وكان يريد القول مع ذلك بأن أي اعتراض ليس صالحاً. إن الفكر يحرف أحياناً الاستعمال اللغوي.

ولنفترض الآن أننا وضعنا عشرة أشخاص أمام لوحة واحدة وطلبنا منهم أن يعطونا عدد الجمل اللازمة لوصف المشهد المعروض، إن هؤلاء الأشخاص سيخرجون للإجابة قبلياً، وعندما يصفون اللوحة فعلاً فإن عدد الجمل المستعملة سيختلف من شخص إلى آخر. إن تقسيم حديث ما إلى جمل، عندما لا يكون هذا التقسيم بصورة رتيبة، يستجيب لحظة ترتكز أساساً على معرفة التأثير الذي يمارسه على المستمع عندما نتحدث. إن تقسيم أحاديثنا يتوقف على كل واحد منا، ويمكننا أن نسترسل في الحديث ببساطة بتقليد من هم أكبر منا سناً دون تفكير، ولكن لو أردنا ذلك فإن فكرنا ينظم هذا التقسيم كما سمعه. إن الكلام يخضع للغة.

## (8) تأثير اللغة :

قد يحدث أن بعض العبارات بإمكانها مغالطة الفكر. فلو قلت «إن لون الطوايع البريدية تغير» فيمكن أن يعتقد مستمعي بأن لون بعض الطوايع قد تغير بفعل تأثير الشمس أو بفعل مادة كيميائية، مع أنني أريد القول بأن لون الطوايع الجديدة يختلف عن القديمة، إن الخطأ ممكن لأن العبارة تسمح بتأويلين، إلا أن مستمعي لا يضطرب إلا إذا جهل الوقائع التي أعرفها. وكذلك الأمر عندما نقول للأطفال بأن «الشمس تطلع»، إذ يعتقدون بأننا نصف حركة الشمس، ولكن عندما يعرفون الوقائع الفلكية، فإنهم يربطون معنى آخر بهذه الجملة. أخيراً يمكننا أن نستعيد هنا الجملة المشروحة في الفقرة الثالثة : «لكي تتكلم لغة أجنبية جيداً، فيلزم أن تفكر بهذه اللغة»، إن هذه الجملة لا يمكن أن تحطى إلا من لا يعرف وقائع الأزدواجية. وعلى العموم فإن الكلمات لا يمكن أن تغالط الفكر إلا إذا كانت مصدرنا الوحيد للمعرفة، إن كل مصدر آخر يسمح لنا بتحقيق الخبر اللغوي.

إلا أن من يؤكدون أن استعمال لغة ما يساعد على التقدم العقلي لا يعلمون فقط بهذا النوع من الوقائع. إنهم يعلمون أساساً بكون الإنسان يتميز عن الحيوان بلغته المنطوقة وتقدمه العقلي في أن واحد، وقد تساءلوا عن العلاقة بين هاتين الخاصيتين.

عندما نتحدث عن اللغة المنطوقة، فإننا نشير إلى أن جملنا مركبة من عناصر لكل منها وظيفة داخل وحدات التواصل هاته. وقد رأينا بأن بنية الجملة هاته لا تتطابق مع بنية ماثلة وجدت عليها أفكارنا، توجد مع ذلك بعض الرموز التي تتطابق مع بعض الأفكار، ولكن ليس لكل رمز مطابقتها العقلي، ومن ناحية أخرى فإننا لا نمتلك أية وسيلة لإثبات ما اذا كانت فكرة ما بسيطة أو معقدة، في حين أن الأمر بالنسبة للكلمات واضح، إن معنى أي كلمة معقد دوما، كما يكشف عن ذلك التعريف الذي يعطيه لها القاموس. من المسلم به أن الفكر ينظم أفكارنا وخطافا لهذا فان اللغة لا تنظم العلامات، إن اللغة لا تشرط الفكر.

وقد حاول البعض اثبات تأثير اللغة بدراسة الكائنات التي لا تتمتع بلغة. فقد عرفت حالة الأطفال الذين رتبهم الذئاب، إذ اعتقد هؤلاء بأنهم استطاعوا أن يخرجوا بنتيجة وهي أن الطفل اذا لم يتعلم الكلام قبل سنين معينة، فإنه سيفقد نهائيا بعض إمكانيات تطوره العقلي. إلا أن هذه النتيجة بعيدة عن الصحة : فقد وصف ك . دفيد في («جريدة علم النفس الأمريكية») حالة فتاة حجزت مع أم خرساء حتى السنة السادسة والنصف من عمرها، وقد بدت خرساء عندما اكتشفت، إذ لم تكن تخرج إلا صيحات غير منتظمة، إلا أنها في ظرف عامين استطاعت أن تتدارك كل تأخيرها. وهناك حالات أخرى من هذا النوع ستكون ضرورية حتى يمكننا استخلاص النتائج.

إن حالات الصم — البكم ليست قاطعة بهذا الصدد إذ يمكننا أن نعلمهم التواصل بغير الكلام وبعضهم، مثل هيلون كيلير، استطاع أن يحصل على تطور طبيعي. لم يكن بالإمكان قط دراسة أصم — أبكم لم يستطع أن يتواصل مع أي كان . إننا نبقي في حدود افتراضات.

عندما يتعلم الطفل الكلام، فيمكن أن نعتقد بأن الجهد الذي يقوم به لتقسيم جملنا هو التمرين الجيد، الذي يلزم لتطوير ملكاته، يلزمه أن يحلل الأوضاع المعقدة حتى يستخلص العناصر التي يرمز إليها كلامنا، فمثلا لو سمعنا نقول البارحة، فينبغي أن يقوم بمجهود شاق : يقارن بين مختلف الجمل التي سمع فيها هاته الكلمة وبين مختلف الأوضاع التي استعملت فيها هاته الجمل. إن القدرة على التحليل يلزم أن تتوفر لديه، ولا يمكن أن يكون الكلام إلا مناسبة لتمرين ذاته. ومن جهة أخرى، لو قبلنا بأن تحليل كلام الراشدين يطور فكر الطفل ويؤدي به إلى التساوي مع فكرهم، فإننا لا نقوم إلا بتحويل المشكل، لأنه ينبغي أن نتذكر بأنه يلزم الإنسان يوما ما أن يخترع لغة يتكلم بها، وهذا الاختراع يتضمن الوجود القبلي لفكر قادر على خلق اللغة المنطوقة.

إذا لم نراع انتظام الجملة، وإذا لم نهم بالجملة بصفتها وحدة، فيمكننا أن نقوم بملاحظة هامة : لتأخذ حالة الانسان الذي يستخدم لغته، لا للتواصل، وإنما ليعبر عن أفكاره لنفسه، ولنفترض أنه أراد أن يعبر عن أفكار جديدة، أي أفكار لم يسمع قط التعبير عنها من قبل، أفكار توصل بها باستدلال عقلي، إن كل من قام ببحث علمي وجد نفسه في مثل هذه الحالة عند صياغة نتائج : يتعين علينا أن نجد طرائق تقليدية. إن المنهج معروف جدا : إنه يعمل لا شعوري نقوم ببارز جمل كما لو كنا نقوم بعملية تواصل، وتصبح هذه الجمل وقائع موضوعية باستطاعتنا معرفتها ودراستها كما لو كانت تتعلق بجمل منطوقة من طرف أفراد

آخرين، وبإمكاننا أن نُثبِت ما إذا كان معنى هذه الجمل يتطابق جيدا مع أفكارنا، وإذا لم تعجبنا تلك الجمل، فإننا سنتتج جملا أخرى. وتستمر عملية البحث هذه حتى نشعر بأن الصيغة المستعملة تتطابق تماما مع الفكرة المراد التعبير عنها. وابتداء من اللحظة التي تتوفر فيها على جمل مختلفة مقبولة، فإننا قادرون على المقارنة بينها، ونثبت ما إذا كانت متأسكة، وإذا اقتضى الأمر فإننا نوفق بينها ونبرز ما هو مشترك بينها، وهكذا سنرتقي درجات في التجريد. إن الكلام يظهر كوسيلة لتثبيت الأفكار، ولحفظها في شعورنا في نفس الوقت. ولو أن اللغة لا تسمح إلا بهذا، فإنها مع ذلك مساعد ذو أهمية كبرى لفكرنا.

إن الجمل التي اعتمدنا عليها لموضع أفكارنا، ولدراستها، يمكن أن ننطق بها ذهنيا، أو بصوت مرتفع أو تكون مكتوبة، إن هذه الاختلافات لا أهمية لها بتاتا، لكن من الأقيد أن نعيد هنا بأن الالتجاء إلى اللغة الداخلية لا يتطابق مع ممارسة التفكير. إن اللغة الداخلية هذه عادة ما تترافق لا إراديا بممارسة تفكرنا، وكذلك الأمر بالنسبة للحركات التي يقوم بها «اللاترايون» حتى يتواصلوا بصمت أنها حركة عادية لأنه ليس بنادر أن نرى (لا ترايبا) يقوم بحركاته مع أنه وحيد، وهذا كأى إنسان آخر يتحدث إلى نفسه، إن هذه الحركات تثبت أنه يفكر، لكن لا يخطر ببال أحد أن يطابق بين الالتجاء إلى الحركات والفكر.

ونميز كذلك بين العدد واسم العدد. إن مدلول العدد يوجد لدى الحيوانات، لكنها لا تمتلك ترقما، إنها لا تميز إلا الأعداد الأولى. وبالعكس، فإن الإنسان يستطيع أن يشعوز بالأعداد لأنه أعطاها أسماء. أن تعد يعني أن تستظهر الأعداد في ترتيب وأن تكون جدول الضرب محفوظة عن ظهر قلب. وبفضل هذه القدرة اللفظية Verbalisme يكون الجبر ممكنا، ويكون العلم دقيقا.

وفي النهاية نؤكد بأن وجود اللغة الباطنية يفترض الوجود المسبق للغة اجتماعية : فبتقليدنا للحوار الاجتماعي بواسطة مناجاتنا لذاتنا يمكن أن نغني حصيلتنا العقلية. إن الكلام لا يصبح مساعدا للفكر إلا بعد أن يكون أداة للتواصل، وهذا يعنى أنه يتعين الاحساس بالحدود التي يفرضها التواصل في اللحظة التي يستخدم فيها الفكر اللغة الداخلية.

## 9) خاتمة :

إن الوقائع التي عولجت هنا تسمح لنا بأن نحدد بالتأكيد علاقات بين الفكر والأفكار من جهة وبين اللغة والكلام من جهة أخرى.

إن لوحدة الكلام، أي الجملة، بنيتها الداخلية التي لا تنقيد بالفكر، ولو أخذنا الجملة بصورة إجمالية، فنسجد أنها تستجيب لمعظم الاحتياجات التواصلية، وقد ملكت الفجوات بأساليب تواصلية أخرى. كل أسلوب تواصل، كان لغويا أم لا، فإنه نتيجة اتفاق اجتماعي : إنه قائم على أساس اتفاق المعارف، أي على الحقيقة، وهو لا يعبر إلا من حيث إنه يحقق التبليغ. إن الفكر وجد قبل اللغة، وميدان أفكارنا أوسع بكثير من ميدان كلماتنا، ويمكن أن نمارس التفكير بدون الإعتداع على الكلمات، ولو أن التفكير يترافق مع كلمات، فإن عمله

ليس مشروطا بالكلمات المستعملة. ان الفكر يستخدم الكلام لموضعة الأفكار، وتنظيمها وتجزئتها. وأخيرا فان الفكر يمكن أن يؤثر في تطور اللغة.

ان اللغة لا تؤثر في الفكر إلا استثنائيا، وطبعيا فان اللغة في خدمة الفكر الذي ينظمها ويستخدمها : واللغة لم توجد لهذا فقط، انها وسيلة للتأثير في الغير. ان الانسان المتكلم L'homo Loquens ليس إلا مظهرا خاصا للانسان الصانع L'homo Faber.

ترجمة : حميش محمد توفيق

---

هوامش :

- (1) Trapiste الاتراپي : أحد رهبان دير لاتراب المنتعنين عن الكلام (المنهل)
- (2) رعادة Torpille : جنس أسماك بحرية مكهوبة إذا مسها الانسان خدرت يداها حتى يرتعد ما دام السمك حيا. (المنهل).